قصص فرعونية :

قصة سينوحيت

لأديب مصري قديم

بقلم الأستاذ محمد خليفة التونسي

الأدب المنبوذ :

أما قبل أن نضع القصة بين يديك فلنقف وقفة قصيرة لننظر ما حل بأدب مصر التي تدين لحضارتها بالفضل العميم كل الحضارات التي أعقبتها منذ فجر التاريخ حتى حضارتنا الراهنة في جميع بقاع الأرض .

نعرف لكل أمة أدبها : فلكل من الإغريق والرومان والعرب والأتراك والفرس والإنجليز والفرنسيين والإيطاليين والألمانيين والروس أدبهم ، ولأدب كل أمة قراء يقبلون على قراءته ودرسه للتمتع والانتفاع ، وله في ثقافتنا نصيب كثير أو قليل ، ولكن أدب مصر القديمة لم يقدر له حتى اليوم في اللغة العربية أنصار يقدمونه إلى أبنائها — ولا سيما المصريون — كما قدر له أنصار مقتدرون في سائر اللغات الأجنبية الحية ، ولا يعدو ما كتب باللغة العربية حتى اليوم أن يكون محاولات فردية ضئيلة لا تجد معيناً ولا موالياً ، وهو شيء قليل لا خطر له ، فهو لا يعرفنا بحقيقة هذا الأدب الرائع وآفاقه التي امتد إليها ، ولم يقدر له أن يكون ذا أثر ما في ثقافتنا الراهنة التي لأدب كل أمة فيها نصيب

ومحاولتي هذه لا غنى بها عن قراءة ما كتب في هذا الباب في المؤلفات الأجنبية المطولة والمختصرة ، فهي محاولة ضئيلة لتعريف القارىء العادي ببعض آثار الأدباء المصريين الأقدمين في بعض نواحي الأدب ؛ فليعلم أنها جهد المقل إن شاء قنع به في غير مقنع ، وإن شاء المزيد اتخذ سبيله إلى التواليف الأجنبية الحافلة بكل ما يشتهيه ، وكل ما يقنعه بخطر هذا الأدب الرائع . ولعل هذا يصادف قارئاً أوسع مني فراغاً وأغزر ثقافة وأوفر صبراً فيكون أقدر مني على النهوض بإنصاف هذا الأدب المنبوذ ، وإعطائه ما له في اللغات الأجنبية الحية ، فيصحح نظرتنا إلى أولئك الأجداد الكرام حتى نعرف لهم فضلهم ونقدر أدبهم قدره ، وذلك في نظري مظهر للوطنية لا يقل جمالاً وفضلاً عن سائر مظاهرها الأخرى .

عصر القصة :

أما بعد فربما كنت أيها القارىء محتاجاً إلى أن يتهيأ لك جو القصة لتكون أكثر فهماً لها وإحساساً بها ، فقليل ما وقفنا عليه في تعليمنا المدرسي والجامعي من تاريخ المصريين الأقدمين ، وهأنذا أقدمه على قدر المستطاع .

أمر ملك مصر بطليموس فيلادلفوس كاهناً مصرياً كان يعيش في مدينة سمنود ويسمى ما نيثون أن يكتب تاريخ الفراعنة قبله ، فصدع بما أمر وابتكر تقسيمهم إلى طبقات أو أسرات . ومنذئذ حتى الآن وكثير من المؤرخين الذين أعقبوه يتابعونه في ابتكاره فيسلسلون الفراعنة في ثلاثين أسرة ، ويقسمون هذه الأسر إلى ثلاث دول : الدولة القديمة وتبدأ بالأسرة الأولى ومؤسسها مينا أو نارمر على خلاف وتنتهي بالعاشرة . والدولة الوسطى وتنتهي بالسابعة عشرة . ثم الدولة الحديثة وتمتد إلى الثلاثين حين احتل الفرس مصر حتى أجلاهم عنها الإسكندر الأكبر .

قبل أن تأفل شمس الدولة القديمة ، وإن شئت الدقة فقل في عهد الأسرة السادسة الذي أعقب عهد بناة الأهرام بدأت مصر تضعف بضعف ملوكها ، وظهرت في كل إقليم أسرة قوية على رأسها أمير اغتصب من الملك وظائف الدولة كالإدارة والقضاء وصار له فيه شبه استقلال ، وبذلك ظهرت الإمارات أو ما يسمى العهد الإقطاعي .

وكان لكل من هذه الإمارات عاصمة ، فكانت تلك العواصم كأرمنت وطيبة وأسيوط تتنازع السلطان وتحترب فيما بينها طمعاً في توسيع رقعتها بالاستيلاء على أملاك جاراتها ، وامتدت تلك الفوضى حتى نهاية الأسرة العاشرة .

كان أظهر أسرتين إذ ذاك أسرة هركليوبوليس (أهناسية) وأسرة طيبة (الأقصر) وقد ظلتا تحترقان زمناً وتم الغلب أخيراً لأمراء طيبة فبدأ شأنها يعظم وسلطانها يمتد حتى شمل مصر ، وكان ذلك بدء نشوئها وارتقائها حتى نالت شهرتها التاريخية

الخالدة . وكما انتصرت طيبة على سائر العواصم انتصر إلهها أمون على سائر الآلهة المصرية فصار أوزها ، وعمت عبادته أرجاء مصر وصار لكهنته السلطان على سائر الكهنة والمصريين .

وقد ساعد على نشوء طيبة وتفوقها موقعها الجغرافي . فهي تتوسط سهلا خصيباً واسعاً أمامه أرض قاحلة ذات أخاديد ووهاد مما يساعد على حمايتها وسد وادي النيل عندها في وجوه غزاتها ، كما ساعد على ذلك قوة حكامها ، وبسالة رجالها الذين يؤلفون جيشها ، وتلك طبيعة رجال الجنوب الأقصى حتى الآن بحكم ذلك الموقع الجغرافي ...

وقد استطاع أميرها أن يوحد مصر ، ويخضع سائر أمرائها لسلطانه ، وذلك بدء الأسرة الحادية عشرة (الدولة الوسطى) وأعقبتها الأسرة الثانية عشرة التي يعد عصرها أزهر عصر في الدولة الوسطى ، وأول ملوكها أمنمحت الأول (سحتب آب رع) الذي شق طريقه إلى عرش مصر واستوى عليه فرعوناً جباراً برغم كل الاضطرابات التي كانت تسود مصر ، واستطاع ضم مصر في وحدة قوية ضما تاماً بأن استمال بعض الأمراء بتوسيع إقطاعاتهم وتأديب العصاة منهم ، واهتم بمصالح الفلاحين ، ووضع الحجارة لتكون حدوداً بين الأراضي ، وبين لكل منهم أرضه ، وأمده بالمياه التي تكفيها ، وجيش الجيوش وزى بها من كانوا يهددون حدود مصر ولا سيما في الجنوب لإخضاع بلاد النوبة (كما ورد في القصة عن خليفته) وملأ جو مصر رغداً وأمناً ، حتى قال بجق : لا جائع ولا ظمآن تحت حكمي . »

ومما يدل على حصافة الرجل وبعد نظره أنه ربى ولي عهده أسرتسن أفضل تربية ، وأسند إليه قيادة كثير من حملاته التي وجهها لدفع الغزاة عن مصر أو لتوسيع أملاكها ، وقبل أن يقضي نحبه بعشر سنوات شعر بضعف الشيخوخة فاعتزل الملك وأقام أسرتسن خلفاً له ، وظل إلى جانبه يرعاه ويسدد خطاه في السياسة والإدارة والحرب ، ويشرف على أعماله أثناء غيابه عن العاصمة في غزواته ، إذ أنه كان يقود جيوشه بنفسه .

وحوادث هذه القصة تبدأ في هذه الفترة أثناء عودة أسرتسن من إحدى حملاته في غرب (ليبيا) قافلا إلى عاصمته طيبة في الجنوب ، ففي طريقه جاءه رسول من القصر ينعى إليه أباه ، وكان من رجال حملته الأمير سينوحيت الذي أورد الكاتب القصة لسانه ـ واقفاً بجانبه والرسول يبثه بالنعي ، ففر بحياته المهـ مجتازاً واديا شرقي إدهى (الدلتا) ثم الصحراء الشرقية ثم سـ سينا حتى بلغ فلسطين التي كان يسكنها العامو ، وبهذا الاسم ذكرهم في القصة .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن سينوحيت الذي أجـ الأديب القصة على لسانه كان ابناً لامنمحت ، وقد يزيد بعـ أنه ابن غير شرعي بدليل ماورد في القصة من اتصاله الملكين بالملـ والأميرات ، وهذه الألقاب الضافية التي أسبغها عليه الأديب يدل على قوة قرابته من الملك .

ويذهب البعض أيضا إلى أنه لم يهرب من مصر إلا خوفاً حياته من أسرتسن أن يقتله حتى لا ينازعه بعد موت أبيه العر الذي استولى عليه قبلئذ بعشر سنوات في حياة أبيه .

وهذه القصة تصف كثيراً من أحوال مصر وأمنمحـ وأسرتسن والبدو من قبائل الصحراء الشرقية وسينا وسـ فلسطين وعلاقة مصر بجاراتها في ذلك العهد البعيد (نحو ٢٠٠٠ سنة ق . م) وكل أولئك ينطبق على ما هو معروف في التا عن ذلك العهد حتى أن أثريا ثقة هو العالم الإنجليزي السير فلـ بترى[1] Sir Flinders Petrie يذهب إلى أنها قصـة د صاحبها لإثبات حوادث تاريخية كما كان الملوك قبل ذلك يدو وقائعهم على جدران قبورهم وآثارهم ويرى أنه لا يبعد أن المنقبون يوما على قبر هذا الأمير سينوحيت ، وأن يجدوا القصة منقوشة في قبره .

القصة

حدّث الأمير سينوحيت حافظ أختام الملك ونديمه الو والفيصل في المشكلات ، والقيّم على أحوال الغرباء . قال : ك في حاشية سيدي الأمير وقرينته العزيزة عنخت أسرتسن ـ الملوك وشريكة حياة ولي العهد .

---

(١) راجع كتابه : قصص مصرية Egyptian Tales وله كتاب تاريخ مصر في ثلاثة أجزاء (History of Egypt (3 vol وكتاب مصر قبل التاريخ Prehistoricc Egypt

وحدث فى السابع من بابة من العام الثلاثين أن تسلل الإله لقصر ، وقبض روح الملك الطيب سحتب آب رع (امنمحت الأول) التى صعدت إلى السماء راجعة إلى مصدرها ، وهكذا قدر لقصر الزاهر أن تطبق عليه الكآبة ، فتوصد أبوابه ، ويحرم قدمه على وجوههم حداداً على مولاهم العظيم .

حدث ذلك بينما كان جيش مصرى جرار يخوض غمار معارك طاحنة فى الغرب ، إذ كان الملك قد بعث قبل موته بهذا الجيش إلى تمهو (لوبية) وزوده بطائفة من خيرة قواده ، وكانت قيادته العليا للإله الباسل الملك أسرتسن ابنه وخليفته فى ملكه ، وما انتهى الجيش من حروبه حتى قفل راجعاً وقد غنم كثيراً من الأسرى ، وقطعاناً لا حصر لها من الأنعام .

قرّ رأى رجال البلاط أن ينهوا إليه خبر الفاجعة ، فبعثوا إليه برسول يحمل النبى إليه أثناء رجوعه من الغرب قبل أن يصل ، فلما جاءه الرسول كان الظلام قد أطبق على الأرض فأفضى إليه برسالته قائلا : « لقد طار الصقر » .

كان غرض الرسول بهذه التعمية ألا يقف أحد من رجال الجيش على جلية ما حدث ، غير أنى لم أكن بعيداً عنه حين أفضى إليه الرسول برسالته ، فسمعتها ، وما كدت أسمعها حتى وعيتها وزلزلت لها زلزالا شديداً .

استحوذ الخوف علىّ ، واشتدت خفقات قلبى ، وسرت فى وصالى هزة هائلة ، وإذا بساقىّ تنطلقان بى بعيداً عن الجيش ، وكانت عيناى أثناء عدوى لا تنفكّان تنقبان ذات اليمين وذات الشمال عن مأوى ألجأ إليه من مخاوفى ، فما ظفرت بعد لأى إلا بنباتات قليلة انطرحت خلالها مختفياً عن أعين الجيش ، متربصاً أن يمر علىّ فلا يرانى .

وعبر بى الجيش فلم يرنى أحد ، ولم أكد آمن نظراته حتى انطلقت أعدو إلى الجنوب ، ولكن لا لأعود إلى العاصمة بل لأهرب بحياتى ؛ فقد رسخ عندى أن لاحياة لى بعد أن مات الملك .

وطفقت أخذ خطاى حتى انتهيت إلى الجيزة فجعلتها خلفى ، وواصلت سراى حتى بلغت سنفرو فبت ليلتى تلك فيما حولها من المزارع .

وعند ما أشرقت الشمس شرعت أسير ، وفى أثناء الطريق لقينى رجل فخاف منى ، وطلب منى الأمان ، فتركته وتابعت رحلتى ، وقبل حلول الليل رأيتنى عند كرأهاو ، وهنا وجدت طوفا على شاطئ النهر لا سكان له ، فامتطيته تاركا نفسى تحت رحمة التيار الذى دفع طوفى إلى شرق آكو ، وهى للربّة حربت ربة الجبل الأحمر ، وكان بها كثير من المحاجر ، وهناك بلغت الضفة الشرقية فهبطت من الطوف وتركته .

ولم أتمهل هناك بل انطلقت إلى الشمال حتى بلغت مسلحة أقامها الملك فى ذلك الثغر[1] لمدافعة جموع الساتى ، فاعترانى الخوف من أن يرانى رجال الحامية الذين كانوا يتناوبون حراسة الحدود من فوق الأسوار ، فاختبأت وراء شجرة هناك حتى لا تقع أنظارهم علىّ .

وقد أفلحت فيما أردت ، وبقيت فى مخبئى حتى إذا عسعس الليل برزت أحدس فى مناكب الأرض إلى أن تنفس الصبح ، وإذا أنا عند بتن ، فتركتها وانحدرت فى وادى كيمور[2] .

وفى هذا الوادى مرت علىّ تجربة قاسية شعرت معها بأنى هالك لا محالة ، فقد عرانى ظمأ ملح ، جفف حلقى ، وحشرج أنفاسى ، وجعل صدرى ضيقاً حرجاً . ولكنى لم أيأس ولم أهن ، بل اعتصمت بالصبر ، وأجمعت أمرى ، وإذا أنا بأصوات تطرق أذنى ، وغناء عذب يهبط علىّ بالسكينة والأمل ، ثم إذا رجال من الساتى كانوا يتجولون هناك ، وكان فيهم رجل رحل إلى مصر فعرفها وأحبها ، وقد عرفنى الرجل فأكرم وفادتى ، وسقانى ماء ولبناً فرويت وشبعت ، وقادنى إلى خيمته ، وأضافنى هو ومن معه فأحسنوا ضيافتى ، ثم دعتنى قبيلة أخرى إلى الإقامة بينهم فلبيت دعوتهم ، ونزلت فيهم أياما ، ثم رحلت شرقا حتى بلغت بى الرحلة أدوم فنزلتها .

(البقية فى العدد القادم) محمد عليم التونسى

---

(١) الثغر الموضع الذى يخاف منه هجوم العدو ، وربما كان المقصود بالمسلحة هنا مدينة (عين شمس) التى كان الملك أسرتسن قد بدأ بناءها فى ذلك الحين ، ويعزز ذلك قربها من الجبل الأحمر المذكور فى القصة .

(٢) هو وادى طوميلات جنوبى إقليم الشرقية .